شخصية الأمير

سعيد بن مسلط

(قراءة تحليلية ونفسية لمنجزها التاريخي)(*)

د. علي بن عوض بن محمد آل قطب

(*) دراسة منشورة في كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب، لغيثان بن جريس، (الطبعة الأولى) (الرياض : مطابع الحميضي، ١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م)، (الجزء التاسع عشر) ص ص ١٨٤ – ١٩٥ .

ثانياً: شخصية الأمير سعيد بن مسلط (قراءة تحليلية وتفسيرية لمنجزها التاريخي) [١]. بقلم. الدكتور علي بن عوض بن محمد آل قطب[٢].

بعد معارك شرسة جرت بين قوات محمد علي باشا والمقاتلين في عسير إبان إمارة آل المتحمي[٣]، تمكن محمد علي باشا من الاستيلاء على عسير، وإسقاط إمارة الأمير طامي بن شعيب المتحمي عام (١٢٣٠هـ/١٨١٥م). ورغم الثورات التي قادها الأمير محمد بن أحمد المتحمي على الحاميات العسكرية المرابطة في عسير، وتمكنه من طرد جنودها من إقليم عسير إلا أن محمد علي باشا ما لبث أن أعاد الكرة، فأرسل حملات عسكرية خلال عام (١٢٣٤هـ/١٨١٩م) تمكنت في نهاية المطاف من أسر الأمير

---

(١) أرجوك يا دكتور علي آل قطب أن ترصد تاريخ أمراء منطقة عسير وبخاصة الذين ورد ذكرهم بشكل مختصر في بعض الكتب والبحوث والدراسات والرسائل الحديثة، وأخص منهم الأمير طامي بن شعيب، والأمير عبدالله بن عسكر، وأيضاً الأمير تركي السديري. كما أن تاريخ منطقة عسير في عصر المتصرفية العثمانية مازال يحتاج إلى جهود كبيرة ورصينة، وأنت وأمثالك خير من يدرس مثل هذه الموضوعات المهمة والجديرة بالبحث والدراسة والتوثيق.

(٢) الدكتور علي بن عوض آل قطب من مواليد مدينة تبوك عام (١٤٠٠هـ/١٩٨٠) درس مراحل تعليمه الأولى(الابتدائية) ، المتوسطة، والثانوية) في باحة ربيعة بمنطقة عسير. بدأ دراسته الجامعية بقسم التاريخ في كلية التربية فرع جامعة الملك سعود عام (١٤١٨هـ/١٩٩٧م) وتخرج في القسم نفسه في كلية اللغة العربية والاجتماعية والإدارية جامعة الملك خالد عام (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)، بدأ حياته الوظيفية أمين مكتبة في المكتبة المركزية بجامعة الملك خالد. عام (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م). حصل على درجة الماجستير في التاريخ الحديث من كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عام (١٤٣٢هـ/٢٠١١م). وحصل على درجة الدكتوراه من قسم التاريخ في كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بجامعة القصيم عام (١٤٣٩هـ/٢٠١٨م). وعمل أستاذا مساعداً في قسم التاريخ بالجامعة الإسلامية لمدة عامين، وانتقل عام (١٤٤٠هـ/٢٠١٩م) إلى قسم التاريخ في كلية العلوم الإنسانية بجامعة الملك خالد. له العديد من الكتب المطبوعة أو في طريقها للنشر، مثل: (١) الأمراء اليزيديون. طبع مرتين عام (٢٠١٣، ٢٠١٦م). (٢) حقق وراجع بالاشتراك مع الأستاذ علي بن الحسن بن علي الحفظي كتاب: مجموع في تاريخ عسير للشيخ الحسن بن علي الحفظي (أبها : نادي أبها الأدبي، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م). (٣) الدولة السعودية الأولى في مصادر جنوب غربي الجزيرة العربية (قيد الطباعة والنشر). (٤) أثر الشوكاني في سياسية اليمنيين تجاه العلماء المعارضين. مقبول للنشر في المجلة التاريخية الحضارية لجامعة الملك خالد. (٥) علاقة الشوكاني بالسلطة في اليمن (في طريقه للنشر). والدكتور علي من طلابي في كلية التربية فرع جامعة الملك سعود، وكلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية والإدارية جامعة الملك خالد. وآل قطب رجل جاد عصامي فقد قابل متاعب عديدة أثناء دراسته مرحلتي الماجستير والدكتوراه، واستطاع تجاوز جميع العقبات التي قابلته، وهو أيضاً أستاذ مميز في أدبه وخلقه وعلمه، وباحث جاد ومجتهد. (ابن جريس).

(٣) قامت إمارة آل المتحمي على ضوء وصول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في عسير، وانضمامها إلى كنف الدولة السعودية الأولى، واستمرت من عام (١٢١٥هـ/١٨٠٠م حتى عام ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩م). انظر: الحفظي، الحسن بن علي: مجموع في تاريخ عسير، تحقيق: علي بن الحسن الحفظي وعلي عوض آل قطب، دار الانتشار العربي، بيروت، (١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م)، ص١٦١ – ١٩٠.

محمد بن أحمد المتحمي، وإخضاع المنطقة إلى نفوذه[١]. وما إن بدا لمحمد علي باشا أن نفوذه قد استحكم في عسير، وأن جذوة مقاومة المقاتلين في عسير لقواته قد أخمدت بشكل نهائي، حتى حدث ما لم يكن متوقعاً، وذلك باندلاع ثورة تاريخية عاصفة خلال عام (١٢٣٨هـ/١٨٢٢م) قادها الأمير سعيد بن مسلط، وتمكن – بنجاح لافت –من طرد حاميات محمد علي باشا من أرجاء عسير[٢]، واستطاع تأسيس إمارة سياسية قوية، حافظت على استقلال عسير لما يربو على نصف قرن من الزمان، وبسطت نفوذها على معظم مناطق جنوب غربي الجزيرة العربية، وتمكنت من التمدد سياسياً وعسكرياً على كافة إقليم عسير، والمخلاف السليماني، وشطراً واسعاً من تهامة اليمن.ما يعنينا في هذا السياق ليس تفاصيل الحدث التاريخي المتمثل في ثورة هذا الأمير، ولا رصد تفاصيل منجزه التاريخي الذي حققه، وإنما النظر إليه من حيث مؤهلاته الشخصية، وصفاته الذاتية، وخصاله القيادية، بوصفها تكوّنُ في جُملتها سبباً رئيسياً من أسباب نجاحه، عطفاً عن كونها تحمل في طياتها تفسيراً للمنجز التاريخي الذي حققته هذه الشخصية، واستحقت أن تكون واحدة من أبرز الشخصيات التاريخية في عسير خلال عصرها الحديث.

إن تتبع المصادر التاريخية التي أمكن مطالعتها، والمختصّة بتناول شخصية الأمير سعيد بن مسلط اليزيدي، فإنّ المادة التي قدّمتها تلك المصادر لا تقدم وصفاً دقيقاً لها، يمكن من خلاله الظفَر بمعرفة عوالم هذه الشخصية، وسبر أغوارها، واستكناه نفسيتها، وفهم الأوضاع الحافة بها، التي كانت بلا شك العوامل الحقيقية وراء إنجازاتها، ذلك أن تلك المصادر كانت تكتفي بسرد تلك الإنجازات وتقريرها، وترصد الدور التاريخي الكبير الذي قامت به، ويبدو هذا الأمر مفهوماً ومبرراً إذا ما تم استحضار المنهجيةالعتيقة التي كُتبت في ضوئها تلكم المصادر، حيث كانت تُغلّب رصد الأحداث وشخصياتها دون الولوج إلى داخلها، ولعل أقصى ما كانت تقدّمه تلك المصادر إن حاولت فهمها والولوج إليها، هو تقديم نعوت ظاهرة تتعلق بالمستوى الخلقي والخُلقي لتلك الشخصية.وفي هذا الصدد فإن ثمة عَدداً من المصادر، التي سجّلت بعضاً من هذه النعوت التي حازتها شخصية الأمير سعيد بن مسلط، حيث ذكر العلامة عبد الرحمن الحفظي بأن الأمير سعيد كان منقاداً للحق، وعلى جانب كبير من محاسن

(١) النعمي، هاشم بن سعيد: تاريخ عسير في الماضي والحاضر، الأمانة العامة لمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، الرياض، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص١٩٣.

(٢) الحفظي، عبدالرحمن بن محمد :تاريخ الملك العسيري (مخطوطة) ورقة : ٢، أصله في مكتبة آل الحفظي ،ولدى الباحث صورة منه.

الأخلاق[١]،كما وصفه بعض المعاصرين له بأنه قد امتاز بصفتي الذكاء والحكمة[٢]، في حين أن عاكش الضمدي أثنى عليه، ووصفه بالوفاء حين عرض على الوزير الحازمي العودة معه إلى عسير[٣]، كما يشير ابن بشر في تاريخه إلى أن هذا الأمير كان مشهوراً بالديانة والعبادة[٤]، وحين ذكر وفاته أشار بأنه كان شجاعاً مُطاعاً[٥]، أما الشيخ النعمي فيتفق مع ابن بشر في تديّن الأمير سعيد، حيث ذكر أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانت قد صقلته بالورع والدين والنزاهة[٦]، علاوة على أن رفيع يشيد بحنكته ومهارته على المستوى العسكري[٧].

هذه هي أهم الصفات التي أثبتتها المصادر في حق هذا الأمير، التي كانت بلا شك محددات رئيسية لشخصية الأمير سعيد بن مسلط، غير أن هذه المحددات تظلّ قاصرة إذ ما تم التعويل عليها بشكل كلّي في تفسير الحضور التاريخي، الذي فرضته هذه الشخصية أواخر إمارة آل المتحمي، ثم تفردها بقيادة مقاومة الحملات العثمانية، عطفاً على المُنجز التاريخي الكبير الذي حققته عبر تأسيسها لإمارة راسخة وقوية عام (١٢٣٨هـ/١٨٢٣م)، تصدت بكل جدارة وقوة لحملات العثمانيين لأكثر من نصف قرن بعد هذا التاريخ !!. ولكي يتم فهم هذه الشخصية، ووضعها في إطارها الصحيح، فإن تحليلها سيتم عبر المزاوجة بين السياق التاريخي الذي يُفسّر أعمالها، وبين استنطاق خطاباتها التي كانت تعبّر عن نفسيتها، ومبادئها، وطريقة تفكيرها.

ومن خلال بعض خطابات هذه الشخصية فإنه يمكن تلمّس الشعور الوجداني الكثيف الذي ينبعث منها تجاه الأرض، بحيث يمكن أن يُدرج هذا الشعور ضمن ما يُعرف حالياً بالحس الوطني الذي كان يفرض عليها القيام بدورٍ تاريخي يعزلها عن الهيمنة العثمانية، ولأجل ذلك فقد كانت هذه الشخصية تؤمن إيماناً عميقاً وصادقاً بأن العثمانيين ليس لهم أي حق أو مطلب في عسير، وقد عبرّ الأمير سعيد عن ذلك بقوله :

---

(١) الحفظي، مخطوط تاريخ الملك العسيري، ورقة : ٢.

(٢) تاميزيه، موريس: رحلة في بلاد العرب (الحملة المصرية على عسير ١٢٤٩هـ / ١٨٣٤م)، ترجمة : محمد عبد الله آل زلفة، مطابع وإعلانات الشريف، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م، ص١٧٩ .

(٣) عاكش، الحسن بن أحمد الضمدي : الديباج الخسرواني في أخبار أعيان المخلاف السليماني، تحقيق : إسماعيل بن محمد البشري، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٤هـ، ص٢١٨ .

(٤) ابن بشر، عثمان بن عبد الله، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق وتعليق : عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ط٤، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ج٢، ص٤٠ .

(٥) المصدر السابق، ج٢، ص٤١ .

(٦) النعمي، تاريخ عسير، ص٢٠٥ .

(٧) رفيع، محمد عمر: في ربوع عسير، دار العهد الجديد، القاهرة، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م، ص٢١٥ .

" وأما الباش[١] فلا نرى الخط[٢] عنده وجه لأنا لا نعلم له عندنا من المطالب شيء "[٣]، علاوة على أن الأمير سعيد كان دوماً يرفض فكرة المصالحة مع العثمانيين طالما أن ثمة متسعاً للمقاومة والصمود، وهذا ما أشار إليه من خلال قوله في بعض رسائله : "وأما صلح أهل الشام فلا نعمل عليه، ونعرف أن الله سبحانه وتعالى قد أوقع بهم الخزي والذي لم يصب غيرهم "[٤].وإذا كان هذا الشعور والإخلاص الكبيران تجاه الأرض، قد قادا إلى هذا الإيمان العميق بضرورة عزل عسير عن الهيمنة العثمانية بأي شكل من الأشكال ،فإن ذلك يعني أيضاً أن هذه الشخصية كانت تأنف كثيراً من الخضوع لتلك الهيمنة، أو الارتهان إليها ،حيث شكّلت هذه المشاعر عوامل نفسية ضاغطة يمكن استلهامها في تفسير اضطلاع هذه الشخصية بقيادة دور تاريخي مناهض للهيمنة العثمانية، وتأسيس إمارة مستقلة عام (١٢٣٨هـ/١٨٢٣م) ، بحيث ألغت تلك العوامل عائق العمر المتقدم التي كانت ترزح تحته هذه الشخصية، إذ كانت وقت هذا التاريخ تنيف على الستين عاماً من عمرها[٥]!! .لقد كشفت أيضاً خطابات هذه الشخصية عن مدى حنقها على الهيمنة العثمانية، حيث صرّحت بالقول بأنها لن تقف مكتوفة الأيدي في حال مهاجمة أحمد باشا يكن لحدود عسير، وأنها لن تتهاون معه مطلقاً، حيث ورد في بعض رسائل الأمير سعيد ما لفظه: " فإن أراد العافية والسكون فيخلّينا[٦] ويخلي سبيلنا، وإن هو يدور الفتن، ومراده يوازينا[٧] عند طوارفنا[٨] فنستعين عليه بقاصم الجبابرة[٩] فهو يكفي من توكل عليه "[١٠].

---

(١) في الأصل : الباشة .
(٢) الخطّ : أي الرسالة .
(٣) رسالة مشتركة من الأميرين سعيد بن مسلط وعلي بن مجثل إلى السيد محمد عقيل العلوي، بتاريخ ٤ ربيع الثاني ١٢٣٨هـ، محفظة : ٨ بحر برا، رقم ٩٣، مركز الوثائق والبحوث، أبو ظبي .
(٤) رسالة من الأمير سعيد بن مسلط إلى محمد بن حسن بن خالد الحازمي، بتاريخ ١٢٤٢هـ، منشورة لدى: النعمي، تاريخ عسير، ص٢١١ .
(٥) ذكر ابن مسفر في أخباره أن الأمير سعيد توفي في عام ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م عن عمر يناهز الخامسة والستين عاماً. انظر، أخبار عسير، ص٨٨ ؛ كما أن عاكش حين صرّح باسم الأمير سعيد في حوادث عام ١٢٣٤هـ/١٨١٩م، سبقه بلفظة (الشيخ) وهذا يعني أنه بالفعل كان كبيراً في السن. انظر : الديباج، ص٢١٨.
(٦) في الأصل : فيخلّنا، ويقصد يتركنا ويبتعد عنّا.
(٧) يوازينا : أي يضايقنا.
(٨) طوارفنا : أي حدودنا.
(٩) في الأصل : الجبابر.
(١٠) الرسالة السابقة من الأميرين سعيد بن مسلط وعلي بن مجثل إلى السيد محمد عقيل العلوي، مركز البحوث والوثائق، أبو ظبي.

ولعل هذه الدوافع النفسية أيضاً هي وراء ما ذكرته بعض المصادر عن صلابة هذه الشخصية تجاه العثمانيين، إذ سجل أحدها أن الأمير سعيد في بعض معاركه حين حاصر عدداً من القوات العثمانية، وتمكن من إجبارها على الاستسلام عزم على قتل كل جنود تلك القوات، وعدم الإبقاء عليهم، غير أن أخاه الأمير علي بن مجثل بعد صعوبة كبيرة تمكن من ثنيه عن ذلك، واكتفى بأخذ أسلحتهم، وأمتعتهم، وترحليهم من عسير[١].

إن تتبع حركة الأمير سعيد منذ بدايتها يحيل إلى أن هذه الشخصية لم تكن إلا استجابة للتحديات الجسيمة التي فرضتها حملات محمد علي باشا في عسير، فلئن كانت هذه الشخصية تعدّ من الشخصيات المخضرمة التي عاصرت قدوم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى عسير، وما أفرزته من قيام إمارة آل المتحمي، إلا أنها خرجت متزامنة مع وصول الحملات العثمانية إلى عسير، وهذا يفضي كضرورة منطقية إلى القول بأنها قبيل ذلك وفي ظل رسوخ تلك الإمارة واستقرارها كانت خارج سياق الفعل التاريخي تماماً، خصوصاً أثناء استتباب الوضع للأمير محمد بن عامر المتحمي، مروراً بفترة أخيه الأمير عبد الوهاب ،وانتهاءً بجل عهد الأمير طامي بن شعيب، بحيث لم يكن التحدي العثماني موجوداً آنذاك والذي كانت شخصية الأمير سعيد كظاهرة تاريخية مرهونة به، عطفاً على أن قوة هؤلاء الأمراء من آل المتحمي، وتلقيهم الدعم الكامل الذي حظوا به من أئمة الدولة السعودية الأولى أسهم في تعبئة المجال السياسي في عسير من غير إحداث أي فراغ قد يكون سبباً لظهور هذه الشخصية أو غيرها، علاوة على أن استدعاء أواصر القرابة بين هذه الشخصية وبين الأمير محمد بن أحمد اليزيدي وما شكّله هذا الأخير من ممانعة لنفوذ الدولة السعودية الأولى في عسير، يعدّ هو الآخر عاملاً مضافاً في انزواء شخصية الأمير سعيد بن مسلط عن دائرة الفعل التاريخي في عسير.

لقد أثبت المسار التاريخي أن إمارة آل المتحمي قد ظلت تكتسي شرعية كبيرة من الدولة السعودية الأولى، وأنها كانت مرتبطة ارتباطاً كلياً بالنسق الفكري لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولأجل ذلك فإن سقوطها كان مرهوناً بهذين الاعتبارين ومدى قوتهما، حيث شكّلا معاً تفسيراً مزدوجاً لقيام إمارة آل المتحمي في الأساس، ومن ثم بقاءها الذي انتهى حين تلاشى الاعتبار الأول، وانحسر زخم الاعتبار الثاني، والنتيجة أن دفاع إمارة آل المتحمي وتصديها كان دفاعاً عن الدولة السعودية الأولى، وعن النسق الفكري للدعوة، كما أنه كان دفاعاً أيضاً عن المكتسبات التي تحققت في عسير من خلال هذين الاعتبارين، في حين أن ظهور شخصية الأمير سعيد على المشهد السياسي والعسكري، كان ظهوراً يرتبط بالدفاع عن الأرض في المقام الأول، فلئن كان دفاع الأمير

(١) تاميزيه، مصدر سابق، ص١٧٩ .

سعيد جاء في بداياته مرتبطاً ومنسجماً مع دفاع إمارة آل المتحمي في آخر عهدها، فإن هذين الدافعين كانا مختلفين من ناحية المضمون، وإن اتحدا في الشكل حيث كان من المؤكد أن الأمير سعيد وأعماله السياسية والعسكرية كانت تعبيراً عن نفسية ذلك المجتمع وتجسيداً لها، ولعل ما يؤكد على أن هذه الشخصية كانت استجابة لضرورة إنتاج رمز سياسي وعسكري يرتبط بالأرض، ويدافع عنها ضد تلك الحملات، أن الأمير سعيد حين قاد ثورته المشهورة على القوات العثمانية دانت له جلّ القبائل في عسير من دون صعوبة تذكر، وامتد نطاقه السياسي في لحظة وجيزة شاملاً أغلب منطقة عسير وذلك في عام (١٢٣٨هـ/١٨٢٣م)[١]، علاوة على أن ما يؤكد ذلك أن الأمير سعيد ذكر في بعض رسائله أن أجوبته المتعلقة برفض الصلح مع العثمانيين كانت كما يقول: " بمحضر كبار عسير، وشهران، ورفيدة، وبني الأسمر، وبني الأحمر، وبني شهر، وبلقرن، وبني عمرو، ومن حضر من أكابر عبيدة، وسنحان، ومن حضر من وادعة، ورجال همدان[٢]" . فضلاً عن إشارته بأن العسيريين قد اتخذوا موقفاً موحداً ضد العثمانيين عبر قوله: " الحمد لله قد أصلح ذات بين المسلمين، وعزموا على حرب الترك، ومن والاهم "[٣]وهذا بلا شك يحيل إلى التأكيد على أن الأمير سعيد كان يتحرك بمقتضى إرادة شعبية كانت تمدّه بالقوة في مواجهة خصومه، ولعل قراءة أحد المؤرخين لحركة هذه الشخصية، أثناءتموضعها داخل السياق التاريخي تعطي ذات النتيجة حيث قال بأنها كانت: " حركة شعبية محلية، واعتبرت بداية الانطلاق نحو الاستقلال التام من أي سلطة متسلطة "[٤] .

لقد أبانت أيضاً خطابات هذه الشخصية عن جسارتها، وصراحتها مع الخصوم فحين نمُي إلى الأمير سعيد أن الصلح الذي جرى بينه وبين الشريف محمد بن عون، ومحافظ مكة أحمد باشا يكن لم يكن إلا استراحة محارب، وأنهما سيعاودان مهاجمة عسير، بعث برسالة إلى الشريف محمد طالبه فيها بإيضاح موقفه من ذلك، حيث قال: " فإن كان الصلح استتم على مضمون[٥]ما راح عليه الربع فعرّفونا، وإن كنتم خالفتم عنه فعرّفونا "[٦]. ثم قدّم في خاتمة رسالته لوماً وتثريباً على الشريف ابن عون من

(١) النعمي، تاريخ عسير، ص٢٠٨.
(٢) الرسالة السابقة من الأميرين سعيد بن مسلط وعلي بن مجثل إلى السيد محمد عقيل العلوي، مركز الوثائق والبحوث، أبو ظبي .
(٣) الرسالة السابقة.
(٤) آل زلفة، محمد عبد الله : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتأثيرها على مقاومة بلاد عسير ضد الحكم العثماني المصري، دار بلاد العرب، ط١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ص١١٣.
(٥) في الأصل : مظمون.
(٦) رسالة مشتركة من الأميرين سعيد بن مسلط وعلي بن مجثل إلى الشريف محمد بن عون، (بدون تاريخ)، محفظة : ٦ بحر برا، رقم ١٢٧، منشورة لدى عبد الرحيم، مصدر سابق، ص٣٧١.

خلال قوله : " أن هذا الصلح خديعة منكم ومن الباشا وهذا أمر لا ينبغي، والله لا يهدي كيد الخائنين "[١].ومن جهة أخرى فإن رسائل الأمير سعيد تُعطي أيضاً حنكته السياسية، ففي رسالة بعثها إلى محمد بن حسن بن خالد الحازمي أحد مناصريه في المخلاف السليماني ،ويبدو أنها كانت رداً على استنجاد هذا الأخير بالأمير سعيد ضد علي بن حيدر شريف (أبو عريش) المدعوم من قبل العثمانيين، أشار الأمير سعيد إلى أن إمكانياته وقت ردّه لا تسمح له بالتحرك صوب المخلاف السليماني، بسبب المجهود الشاق الذي بذله مقاتلوه في التصدي للعثمانيين، حيث قال: "إن إخوانكم قد تعبوا تعباً[٢] عظيماً[٣]، وبعضهم ستة أشهر لم ير أهله"[٤]، كما يؤكد في ذات الوقت أنه قد انتهج خياراً سلمياً في هذه المرحلة مع الشريف علي بن حيدر، حيث أشار إلى أنه قد راسله، وطلب منه تلبية طلبات الحازمي من خلال قوله: " وقد كتبنا إلى الأمير علي بن حيدر خطوط، وذكرنا له إن كان ردّ عليكم ما بقي من مالكم وأرضكم، ويؤمّر من ترضون، ولا تؤخذ من المخاليف الزكاة "[٥]كما أكد في ذات الوقت على الحازمي بأن يغض الطرف عن مسألة الاستحقاقات الكاملة التي أرادها من الشريف علي بن حيدر باعتبار أن الواقع المحيط بالأمير سعيد لا يسمح له بنصرته ضد شريف (أبو عريش[٦].

ومن الملاحظ أيضاً أن خطابات هذه الشخصية كانت تُبنى ببعض المفردات الدينية، مما يعني صدق ما أوردته المصادر عن تدين الأمير سعيد، حيث تردد في تلك الخطابات ألفاظ قرآنية مثل : " والله لا يهدي كيد الخائنين "[٧]، و"الأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين"[٨]، كما ورد في حاشية إحدى رسائله المبعوثة إلى السيد محمد عقيل العلوي عبارات وعظية تعاتبه وتعرّض به، بسبب علاقاته الحسنة مع العثمانيين حيث ورد فيها

---

(١) الرسالة السابقة.
(٢) في الأصل : تعب.
(٣) في الأصل : عظيم.
(٤) الرسالة السابقة من الأمير سعيد إلى محمد بن حسن الحازمي، منشورة لدى النعمي، تاريخ عسير، ص٢١١ .
(٥) المصدر السابق، ص٢١١ .
(٦) المصدر السابق، ص٢١١ .
(٧) وردت في الرسالة المشتركة من الأميرين سعيد بن مسلط وعلي بن مجثل إلى الشريف محمد بن عون، منشورة لدى عبد الرحيم، مصدر سابق، ص٣٧١، ٣٧٢. وهي مقتبسة من الآية الكريمة : (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين). انظر : (سورة يوسف، آية رقم : ٥٢) .
(٨) وردت في الرسالة السابقة المبعوثة إلى السيد محمد عقيل العلوي، مركز الوثائق والبحوث، أبو ظبي. وهي مقتبسة من الآية الكريمة : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين). انظر : (سورة الزخرف، آية رقم : ٦٧) .

قولـه: " فـإن الله سبحانـه قد أمر بالتعـاون على البر والتقوى، ونهى عـن التعاون على الإثـم والعـدوان، وهؤلاء الناس مـن يعينهم وينفعهم على باطلهـم فهو ممن يعين على الإثـم والعـدوان "[١]. وقوله أيضاً : " فـإن كان لك غرض فيما ذكـرت أنا نتوافق نحن وإيـاك على كتاب الله وسنة رسوله، ونوالي من حكمت السنة بولايته ونعادي من حكمت السنـة بمعاداتـه "[٢]. وفي هـذا الصدد أيضاً فإنـه من الملاحظ أن الأمـير سعيد كان ينظر إلى أعماله العسكرية بأنها داخلة ضمن أدبيات الجهاد الإسلامي، حيث يقول في بعض رسائله: "وإذا طابت النفس، وركدت البلاد، فالجهاد فريضة ولا منه عذر إلا من عذر الله في كتابه"[٣]. وإضافة إلى كل هذه العبارات الدينية التي يتّخذها الأمير سعيد أسلوباً في الكتابة، تكشف عن تديّنه الشديد، فإنه أيضـاً كان يختم العديد من رسائله بقولـه : " الواثق بالله سعيد بن مسلـط"[٤]. وإذا كان هذا اللقب يدلّ على تديّن الأمير سعيد فإنه من ناحية أخرى يضع نفسه كعلامة من علامات السيادة والإمارة، وهو على هـذا النحو يستلهم حضوره وزخمـه من التقليد الإسلامي المعـروف، والمتجسّد في تلك الألقاب التي اتّخذها خلفاء المسلمين وحكامهم في فترات عديدة من التاريخ الإسلامي.

وبالرغم من هـذه الصفات والمبادئ التي اشتملت عليها شخصية الأمير سعيد بن مسلط، التي كانت بمثابة المؤهلات التي صنعت من الأمير سعيد بن مسلط رمزاً سياسياً وعسكريـاً في عسـير خلال هذه المرحلة، إلا أنه من الصعوبـة بمكان قبول أن تكون هذه المؤهلات هي السبب النهائي وراء ذلك، وبالتالي فإن ثمة سؤالاً غائراً لم يزل قائماً يلقي بظلالـه، يتعلق بالعوامل التي مكّنت الأمـير سعيد دون غيره من الشخصيات السياسية والعسكريـة المتناثرة في إقليم عسير لأن يقوم بهـذا الدور التاريخي ؟؟ وهذا السؤال لم يحاول الإجابة عليه بشكل واضح، ومستفيض إلى حد ما سوى الشيخ النعمي، الذي رأى أن هـذه الشخصية لم تنـل حضورها إلا حين تزوج أمير عسـير الشريف هزّاع بن عون الذي عينّ نائباً لأخيه الشريف محمد بن عون من قبل حكومة الحجاز حليمة بنت مسلط أخـت الأمير سعيد التي وصفت بأنها " أنبل نساء وقتها في عسير ديناً وعفة وعقلاً "[٥]،

(١) حاشية الرسالة السابقة .
(٢) حاشية الرسالة السابقة .
(٣) الرسالـة السابقـة من الأمير سعيد إلى محمد بن حسن بن خالـد الحازمي، منشورة لدى : النعمي، تاريخ عسير، ص٢١١ .
(٤) علـى سبيـل المثال : رسالته المبعوثة إلى الشريف محمد بن عون، منشورة لدى عبد الرحيم، مصدر سابق، ص٣٧١.
(٥) النعمي، تاريخ عسير، ص٢٠٥ .

ويستنتج الشيخ النعمي من خلال هذه المصاهرة أن الأمير سعيد كان " لقربه من الحاكم وما للحاكم نفسه من الحُرمة، والاعتبار المادي والمعنوي، ومنها رئاسة عشيرته آل ناجح، وإسناد قيادة غزو بني مغيد في المغازي، فازداد بذلك شرفاً وجاهاً لدى أهل وطنه، ولم تمض عليه أيام حتى أصبح ذا كلمة مسموعة لدى العسيريين ورأي صائب "[١].

على أن الأخذ بهذا الاستنتاج يخالف السياق التاريخي الذي كان الأمير سعيد محوراً رئيسياً فيه، ذلك أن الأمير سعيد لم يبدأ دوره التاريخي، ونفوذه الملموس عقب هذه المصاهرة المؤرخة في عام (١٢٣٦هـ/١٨٢١م)، وإنما كان قبلها باتفاق المصادر، حيث بدأ نشاطه، وكما سبق القول منذ قدوم حملة محمد علي باشا عام (١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م) في أواخر عهد الأمير طامي بن شعيب المتحمي، ثم كان هذا الأمير فاعلاً سياسياً وعسكرياً في عهد الأمير محمد بن أحمد المتحمي، كما جرى إثبات تفرده بقيادة المقاومة ضد العثمانيين بعد أسر الأمير المتحمي، ومقتل الوزير الحازمي عام (١٢٣٤هـ/١٨١٩م). كما أن رئاسة عشيرته، وقيادته لبني مغيد كانت مواكبة للأحداث السابقة، وهذا ما صرّح به عاكش الضمدي ضمن حوادث عام (١٢٣٤هـ/١٨١٩م)[٢]. بل إن هذه المصاهرة التي طرحها الشيخ النعمي كتفسير لظاهرة الأمير سعيد يمكن فهمها بشكل معكوس، إذ يبدو جلياً أن قلق العثمانيين من نفوذ الأمير سعيد بن مسلط في عسير قد أفضى بهم إلى أن عمدوا إلى اتخاذ سياسة تقوم على احتوائه عبر مصاهرة الشريف هزاع بن عون له، ولعل ما يؤكد على أن هذا الزواج لم يكن إلا تجسيداً لهذه السياسة، أن المصادر تشير أيضاً إلى أن الشريف محمد بن عون قد تزوج أخت مشيط بن سالم شيخ قبيلة شهران[٣]، وأحد أشهر القيادات القبلية في عسير، علاوة على ما أشار إليه أحد الباحثين من أن زواجاً أيضاً قد تم بين هذا الشريف الأخير مع ابنة أحد وجهاء قبيلة رفيدة قحطان[٤]. ولا يكتفي الشيخ النعمي بنصه السابق، إذ حين يتناول نشأة الأمير سعيد والأوضاع التي نشأ في ظلّها، قبل بزوغ دوره التاريخي فإنه يذكر أنه قد " نشأ كما ينشأ أبناء الضواحي على شظف العيش، وضروريات الكسب يمتهن حرفة الفلاحة، وما يتلاءم معها من مقومات الحياة "[٥] !! .

(١) المرجع السابق، ص٢٠٥.
(٢) عاكش، الديباج، ص٢١٨.
(٣) آل زلفة، دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص١١١.
(٤) النعمي، تاريخ عسير، ص٢٠٤.
(٥) المرجع نفسه، ص ٢٠٤.

وحين يُحمل هذا النص في ضوء دلالاته، فإنه يؤول إلى تجريد الأمير سعيد بن مسلط من عديد الخصائص التي أهّلته للإمارة في عسير، بحيث يغدو هذا النص مؤشراً على أن شخصية الأمير سعيد وأدوارها التاريخية وإنجازاتها وهيمنتها السياسية على أرجاء عسير لم تكن سوى محض صدفة تمت من خلال مصاهرة !! وأن كل تلك الأعمال وكل ذلك النفوذ وما سبقه من مقاومة تمت على يد رجل في الأساس كان فلاّحاً فقيراً يخلو من أي عمق تاريخي أو اجتماعي !!. والواقع أن هذا النص غير البريء بحق الأمير سعيد لا يمكن قبوله باعتبار مناقضته للأوضاع الحافة بالأمير سعيد، والتي كانت المسوّغات المؤهلة لأن يضطلع بدور تاريخي كبير مجابه للعثمانيين، بصرف النظر عن إمكانياته الشخصية وصفاتها، وهذه المسوغات يمكن عرضها على النحو التالي :

أولاً: ينتمي الأمير سعيد بن مسلط من ناحيته النسَبية إلى آل يزيد[١]، القاطنين في بلدة السقا بأعالي جبال عسير، وهي عشيرة تعدّ الأعرق في عسير، والأبعد عمقاً. هذا الانتماء يعني أن الأمير سعيد كان امتداداً لأسلافه من أمراء آل يزيد في عسير، والذي كان آخرهم الأمير مرعي بن محمد اليزيدي، والأمير محمد بن أحمد اليزيدي الملقب بمدهمر[٢]. وهذا العُمق الذي يحمله الأمير سعيد بن مسلط شكّل عبئاً عليه، وفي ذات الوقت حافزاً كبيراً للقيام بدور تاريخي يُرمّم الواقع المتردي الذي شهدته عسير منذ عام (١٢٣٠هـ/١٨١٥م)، الذي كان انعكاساً لتوالي الحملات العثمانية، وفي مقابل ذلك فقد كان العسيريون يدركون جيداً أن ثمة عمقاً تاريخياً كبيراً يحمله الأمير سعيد بن مسلط بحيث لم تكن السنوات القليلة المقاربة لعقدين، والتي هي عُمر إمارة آل المتحمي كافية لمحوه من أذهانهم، والدليل على ذلك أن الأمير سعيد بن مسلط حين تمكن من إنجاح ثورته في عسير، كان العسيريون يرتجزون بقولهم " يا مرحباً وأهلاً

(١) ثمة عشيرتان من بني مغيد يُطلق عليهم آل يزيد، وهما آل يزيد السقا، وآل يزيد الشعف، ومن المعلوم أن أمراء عسير من أمثال الأمير سعيد بن مسلط، وعلي بن مجثل وأمراء آل عائض ينحدرون من آل يزيد السقا التي تقع مواطنهم في الجبال الغربية من أبها، أما آل يزيد الشعف فهم يقطنون في شعف شهران جنوب شرق أبها . أشارت بعض المصادر إلى تكوين سياسي في عسير قبل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، يقوده هؤلاء الأمراء. منها مخطوطة نشرها ابن حميد، عبدالله بن علي، في مقال بعنوان : دور أمراء عسير في نشر الدعوة السلفية، مجلة العرب، المجلد التاسع، (رجب ١٣٩٤هـ إلى جمادى الآخرة ١٣٩٥هـ)، ص ٨٦٣، ٨٦٤.

(٢) أشارت بعض المصادر إلى تكوين سياسي في عسير قبل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، يقوده هؤلاء الأمراء، منها مخطوطة نشرها ابن حميد، عبدالله بن علي، في مقال بعنوان : دور أمراء عسير في نشر الدعوة السلفية، مجلة العرب، المجلد التاسع، (رجب ١٣٩٤هـ إلى جمادى الآخرة ١٣٩٥هـ)، ص ٨٦٣، ٨٦٤.

بحكام الزمان"[١]، وهذا الشطر يحيل بشكل واضح إلى ما يتمتع به الأمير سعيد من عمق تاريخي كبير. وعلى الرغم من أن شطر هذا البيت ورد لدى الشيخ النعمي إلا أنه لم يستلهم منه قراءة العمق التاريخي لهذه الشخصية، وما كان عليه أسلافها، بل قدّم كما تمت الإشارة نصاً يفسر ظاهرة الأمير سعيد بأنها تبلورت بناءً على مصاهرة تمت مع الشريف هزاع بن عون !! .

ثانياً: من الناحية القبلية آل يزيد عشيرة ضمن عشائر قبيلة بني مغيد، وكانت المكون القبلي الأكبر في عسير بدلالتها القبلية، ولقوة هذه القبيلة وشدة شكيمتها دور كبير في إضفاء عمق آخر على الأمير سعيد بن مسلط، حيث أضحت إمارة عسير في عصرها الحديث مندرجة فيها، ولم تخرج منها إلا أثناء فترة حكم أسرة آل المتحمي من ربيعة ورفيدة[٢]، ويشير عاكش ضمن تاريخه لحوادث عام(١٢٣٢هـ/١٨١٧م) إلى العمق القبلي الذي كان لأمراء آل يزيد داخل قبيلتهم بني مغيد[٣]، "كما أنه يشير ضمن حديثه عن الجيش الذي قاده الوزير الحازمي صوب المخلاف السليماني عام (١٢٣٤هـ/١٨١٩م) إلى أن غرّة جنده كانوا مقاتلي هذه القبيلة.وإذا كان رصد المصادر التاريخية يشير إلى مكانة هذا المكون القبلي، وقيادة الأمير سعيد له، فإن خطاباته كشفت أنه في أحلك الظروف كان يستلهم قوته ونشاطه العسكري والسياسي من هذا المكون القبلي، ويمكن تلمس ذلك من خلال رسالته إلى الحازمي التي وصف فيها إمكانياته العسكرية المحدودة، وقت بعثه لتلك الرسالة من خلال قوله: "والله ما بقي معنا من سمت أهل السراة من بلاد بللسمر إلى عريعر في بلاد وادعة إلا تسعين أو ثمانين إلا بني مغيد "[٤]، كما أن بعض الوثائق العثمانية حين تحدثت عن الثورة في عسير قالت : "وهذا الأمر[٥] ما هو متقوّم[٦] فيه إلا سعيد ابن مسلط، وعلي بن مجثل وقبيلتهم بني مغيد"[٧].

---

(١) تاميزية، مصدر سابق، هامش المغلق ص ٢٦١ .
(٢) عاكش، تكملة نفح العود، ص ٢٩٧- ٢٩٩.
(٣) عاكش، الديباج، ص ٢١٨.
(٤) الرسالة السابقة من الأمير سعيد إلى محمد الحازمي، منشورة لدى : النعمي، تاريخ عسير، ص٢١٠ .
(٥) يقصد بالأمر هنا أي الثورة .
(٦) يقصد بمتقوم هنا أي محرّك الثورة وقائدها .
(٧) رسالة من مجهول، (بدون تاريخ)، محفوظة : ١٦ بحر برا، وثيقة رقم : ١١٩، مركز الوثائق والبحوث، أبو ظبي.

وبلا ريب فإن هذه القبيلة تستمد قوتها، من خلال ما تكتنزه من مقدرات اقتصادية كبيرة بسبب تمركزها في المناطق الأخصب في عسير، عطفاً على أن تلك المناطق تشكّل نواة عمق إقليم عسير وهي مزية إستراتيجية حيث تحدّ هذه القبيلة من جهة الشرق بنو مالك، وقحطان، وشهران، ومن الغرب ألمع اليمن، ومن الشمال علكم وبنو مالك، أما من الجنوب فيحدها شهران، وبنو شعبة [١]، وبالتالي فقد كانت هذه القبيلة محصنة بتركيبة ديموغرافية كبرى تسمح لها بالتكتل، والتحصن، بحيث لم تكن الحملات العثمانية تصل إليها إلا وقد اخترقت كامل هذه المكونات القبلية الكبيرة، وهذا يعطي صعوبة كبيرة بالنسبة إلى القوات العثمانية، عطفاً على أن ديار بني مغيد ومنازلها في الأساس كانت من أحصن المواقع في عسير، باعتبار تباين تضاريسها، وامتدادها بين أغوار تهامة وسفوح السراة، وبسبب ذلك فقد كان الأمير سعيد بن مسلط اليزيدي يتخذ من المواقع الحصينة لهذه القبيلة ملاذاً دائماً له أمام الحملات العسكرية الضخمة التي كان يشنها العثمانيون على عسير [٢]. وهاتان الركيزتان المهمّتان، عطفاً على المؤهلات الشخصية للأمير سعيد بن مسلط، وإيمانه العميق وإخلاصه، وتفانيه كل هذه الاعتبارات تشكّل في مجملها تفسيراً للمنجزات التاريخية الكبيرة التي تركتها هذه الشخصية.

(١) كورنواليس، مصدر سابق، ص١١٣ .

(٢) كانت الأطوار الغربية لهذه القبيلة حرزاً دائماً للأمير سعيد بن مسلط لحظة انكساراته العسكرية، وهذا ما يمكن تلمسه من المصادر. انظر على سبيل المثال : الحفظي، مخطوط تاريخ الملك العسيري، ورقة : ٢؛ النعمي، تاريخ عسير، ص٢٠٩ ؛ شاكر، مرجع سابق، ص١٧٣. (آل قطب) . أشكرك يا دكتور علي قطب على هذه الورقات التاريخية الجيدة، أرجو أن يكون ضمن مشاريعك المستقبلية دراسة التركيبة البشرية لمدينة أبها وبخاصة قبيلة بني مغيد خلال العصر الحديث، وإذا استطعت أن تدرس أحوالها الحضارية فذلك أفضل .(ابن جريس) .